القصصية: «شعرت بأنني انسان لايعيش على أرضه، انسان كان يجب أن يبقى طفلاً»(٢٤).

ستكون هذه القصة القصيرة التي كتبها غسان عام ١٩٥٨ بذرة ذكرى الذنب المتولدة عند شخصيات «رجال في الشمس» و«ما تبقى لكم»، وسوف تتطور هذه الحالة عند غسان لتسهم في انضاج الوعي الفلسطيني في مسار اكتماله... ان هذا الحس يعود ليتفجر في كافة روايات غسان ليتبلور باتجاه احلال الفعل الثوري محل ذاكرة تستبصر ماضيها وتستحضره، لتتغلب على حالة نفسية تتكرر في عدد كبير من قصص غسان. ان غسان يُحِل مسألة الوعي بالحالة في بداياته... فهو يدرك العقدة، ولكنه لايستطيع حلها. فكما يغور [صاحبه الشهيد] في أعماق الأرض ويتفتت، يغور في الذاكرة ويتلاشى»(٢٥). ولكن الشخصية لاتريد أن تنسى «رغم كل العذاب الذي يحمله التذكر(٢٦). هنا جوهر الرؤية التي تتحمل بها أعمال غسان. الذاكرة تلح على الكتابة في سيطرتها وتواجدها في النص... وهي، لذلك، تشكل محور النص الكنفاني ومنهاجيته الكتابية، إذ يتفجر النص من ذاكرة تشعر بثقل الذنب الجاثم في محمولها. من هنا تبدأ الكتابة... من حالة الامعان عن أرض البرتقال(٢٧)، أو من حالة المنفي في ابتعاده عن البيت وابتعاده عن طفولته(٢٨)... طفولة مذنبة تستقرىء ملامحها في منفى يشعل ذاكرتها ويحرقها، وطفولة تعجز، في تقدمها نحو النضج، أن تنسى، بل تسير خطوة أخرى في ذكرى الذنب لتستحيل الى صراع بين الذنب ونقيضه، لتلعب الارادة الثورية دورها الأساسي وتستحيل مثيراً داخلياً نفسياً للمواجهة والصراع، التي تتبدى في الروح الصدامية المتواقتة مع بزوغ قمر الثورة في رواية «ما تبقى لكم»، ولكن غسان يدع الباب مفتوحاً على مصراعيه، وعقدة الذنب في الرواية لاتجد حلها، حتى تأتي رواية «أم سعد» ومجموعة «عن الرجال والبنادق». في هذين العملين، تنشط الذاكرة لتسجل حياة المقاومة الفلسطينية في حركيتها ونموها التاريخي. ان الذنب هنا يمّحي ويتضاءل، لتحل محله ذاكرة التاريخ المحملة بالبطولة التاريخية، في نموها وتصاعدها عبر السنين.

ينعكس هذا، على كتابة غسان في شكلها، اذ تتجه الكتابة من حالة الاستيطان الداخلي التي يمارسها غسان على شخصياته في «رجال في الشمس» و«ما تبقى لكم»، الى حالة معالجة الحدث في تطوره سواء عن طريق الحوار، كما في «أم سعد» أم عن طريق الوصف الخارجي وتتبع الحالة شبه الروائية في لغة السرد في «عن الرجال والبنادق»... ومن هنا، فان الذاكرة في قلقها ومحمولها من الذنب لاتظهر في هذين العملين، بل تمّحي وتتلاشى.. وأصوات الخطوات المعدنية التي تدق على الجدار بلا نهاية مثل عكاز فقد اتجاهه(٢٩)، تختفي لتحل محلها أصوات البنادق.

هذه الذاكرة تعود لتنهال في رواية «عائد الى حيفا»(٣٠)، والتي تشكل، في مسار كتابات غسان، جوهر استعادة المفاهيم والرؤى التي صاغها في كتاباته الروائية خاصة... غسان، في «عائد الى حيفا»، يسترجع ماكتبه ليعيد الصياغة ويستخلص مفاهيمه؛ وهذا مايجعل «عائد الى حيفا» أقرب الى رواية «الفكرة منها الى أي جنس أدبي آخر... مايهمنا في هذه الرواية، أن ذكرى الذنب تعود لتصوغ الحالة الروائية عند غسان... في منتصف الرواية يقول سعيد س. بطل الرواية. «كنت أشعر أنني أعرفها، وأنها